سكان العالم الثانى

لنهاد شريف

نستطيع أن نقرر مطمئنين إلى أن رواية الخيال العلمى العربية ترسى دعائمها على يدى نهاد شريف الذى أصدر روايته الأولى قاهر الزمن عام ١٩٧٢ ثم مجموعته القصصية « رقم ٤ بأمركم» عام ١٩٧٤ ، ثم قدم عام ١٩٧٧ روايته الثانية « سكان العالم الثانى » . وإذا كانت روايته الأولى « قاهر الزمن » تدور حول فكرة تبريد الأجسام البحرية إلى درجة حرارة معينة بحيث لا تنمو ولا تتحلل انتظارًا لاكتشاف علاج لأمراض أصحابها المستعصية أو جراحاتهم الخطرة أو للاستفادة بذكائهم وقدراتهم مستقبلاً ، فإن روايته « سكان العالم الثانى » تدور حول حلم البشرية فى استغلال قيعان البحار والمحيطات ، وهو حلم طموح لأنه لا يقتصر على مجرد استغلال قيعان المياه لحل الأزمة المتوقعة فى مصادر الغذاء والمياه العذبة بل أيضا فى إيجاد مكان لسكنى مزيد من البشر .

١

وتخيُّل وجود آدميين يسكنون قاع البحر ليس بعيدًا عن تراثنا الشعبى ، لست أعنى تلك الكائنات البحرية الغامضة ذات الصلة بالآدميين مثل النداهة والجنيات وعرائس البحر ، بل أعنى كائنات إنسانية واضحة . ففى قصة عبد الله البرى وعبد الله البحرى من قصص ألف ليلة وليلة نجد أن القصّاص الشعبى قد تخيّل جنسًا من البشر يعيش تحت مياه البحر ، وقد تم اكتشاف هذا الجنس عن طريق الصياد عبد الله البرى الذى ساء حظه عدة أيام فلم تخرج شبكته سمكًا حتى كاد أولاده يتضرّرون جوعًا لولا خبّاز طيب كان يهبه ما يحتاج إليه من الخبز بل ومن الدراهم أيضًا ، حتى رمى شبكته ذات يوم ثم جذبها فإذا هى ثقيلة ، فلم يزل يعالج

فيها حتى خرج الدم من كفيه ، فلما أخرج الشبكة رأى فيها آدميًّا ظن أنه عفريت ، ولكن الآدمى طمأنه بأنه آدمى مثله مؤمن بالله ورسوله أيضا ولكنه من أولاد البحر . وتم عقد اتفاقية بينهما : أن يتقابلا كل يوم فى ذلك المكان ، يحمل إليه عبد الله البرى أنواع الفاكهة التى لا يوجد مثلها فى قاع البحر بينما يحمل عبد الله البحرى أنواع اللآلئ والأحجار الكريمة التى يزخر بها قاع البحر ، ويتبادلان الهدايا فيفرغ عبد الله البرى مشنته ليملأها مما أحضره عبد الله البحرى . حتى كان يوم فيه طلب عبد الله البحرى من صديقه أن يدخل معه حتى يأخذه إلى مدينته ويزور بيته ويعطيه أمانة ليضعها على قبر رسول الله « وقل له : يارسول الله عبد الله البحرى يقرئك السلام ، وقد أهدى إليك هذه الهدية وهو يرجو منك الشفاعة من النار » . فيسأله عبد الله البرى إذا كان خروجه إلى البر يضره ، فيجيبه بأن بدنه ينشف وتهب عليه نسمات البر فيموت . فقال عبد الله البرى وأنا كذلك خُلقت فى البر وسكنى فى البر فإذا دخلت البحر يدخل الماء فى جوفى ويخنقنى فأموت . ولكن عبد الله البحرى طمأنه بأن لديه دهانًا إذا دُهن به جسمه فلا يضرّه الماء ولو قضى فيه بقية عمره ، ثم أخذ منه المشنّة ونزل فى البحر وغاب قليلاً ثم رجع ومعه شحم مثل شحم البقر لونه أصفر كلون الذهب ورائحته ذكية (يبدو أن القاص يقصد العنبر) ، ولما استفسر عبد الله البرى عن هذه المادة أجابه عبد الله البحرى بأنه شحم كبد صنف من أصناف السمك يقال له الدندان ، وهو من الضخامة والشراسة بحيث لو رأى جملاً أو فيلاً لابتلعه (واتساقًا مع الاستنتاج الأوّل فلابدّ أن القاص يعنى بهذا النوع من السمك الحوت) . فأبدى عبد الله البرى تخوفه الثانى من البحر : أن يصادفه هذا النوع المخيف من السمك فيأكله ، فطمأنه عبد الله البحرى بأنه لا يخاف من أحد فى البحر مثلما يخاف من ابن آدم ، لأنه متى أكل ابن آدم مات من وقته ، لأن شحم ابن آدم سم قاتل لهذا النوع ، وأولاد البحر لا يجمعون شحمه إلا بواسطة ابن آدم إذا وقع فى البحر غريقا ، لأن صورته تتغير وربما تمزق لحمه فيأكله الدندان لظنه أنه من حيوانات البحر فيموت ، فيأخذون شحم كبده ويدهنون به أجسامهم .

وهكذا دهن عبد الله البرى جسمه من رأسه إلى قدمه بهذا الدهن ، ثم نزل فى الماء وغطس ليرى أمامه وعن يمينه وعن شماله جبالاً من الماء . فصار يتفرج عليها وعلى أصناف السمك ، البعض كبير والبعض صغير ، وفيه شىء يشبه الجاموس وشىء يشبه البقر وشىء يشبه الكلاب وشىء يشبه الآدميين ، وكلها تهرب منه لأن جميع ما خلقه الله تعالى يخاف من ابن

آدم ، حتى قابلا الدندان وهم يأكل عبد الله البحرى لولا أن صاح عليه عبد الله البرى فوقع ميتًا (ما أعظم احترام القاص الشعبى للإنسان وتعظيمه له على بقية الخلائق) .

ثم مرًا بمدينة البنات ، فكل واحدة يغضب عليها ملك البحر ينفيها إلى هذه المدينة ، وجوههن مثل الأقمار ، وشعورهن مثل شعور النساء ، ولكن لهن أيادٍ وأرجل فى بطونهن ، ولهن أذناب مثل أذناب السمك . وفى مدينة أخرى وجد ذكورًا وإناثًا صورتهم مثل صورة البنات ولهم أذناب . وهم ليسوا ملةً واحدة فيهم المسلمون والنصارى واليهود ، واللى يتزوج يجعل مهره شيئًا معلومًا من أصناف السمك فيصطاد قدر ألف أو ألفين أو أكثر أو أقل بحسب الاتفاق ، ومع أنهم مسلمون إلاّ أنهم لا يطبّقون الشريعة . ففى حالة الزنى تنفى البنت إلى مدينة البنات ، وإذا كانت حاملاً تركوها إلى أن تلد فإذا ولدت بنتًا ينفونها مع أمها وتسمى زانية بنت زانية ، ولاتزال بنتًا حتى تموت . وإن كان المولود ذكرًا يأخذونه إلى الملك سلطان البحر فيقتله .

وما يزال يفرجه حتى فرّجه على ثمانين مدينة . فلما استفسر عما إذا كانت هناك مدائن أخرى فى البحر أجاب عبد الله البحرى : وأى شىء رأيته ، لو كنت فرّجتك ألف عام كل يوم على مدينة وأريتك فى كل مدينة ألف أعجوبة ما أريتك قيراطًا من أربعة وعشرين قيراطًا من مدائن البحر وعجائبه . فأعلن عبد الله البرى اكتفاءه بما رأى لأنه سئم أكل السمك الطرى ثمانين يومًا ، وأبناء البحر لا يعرفون السمك المشوى أو المطبوخ .

وكانت مدينة عبد الله البحرى آخر المطاف ، وبيته وكل بيوت المدينة مغارات كبار وصغار فى الجبال ، وكذلك جميع مدائن البحر على هذه الصفة . فإن كل من أراد أن يصنع له بيتًا يروح إلى الملك ويقول له : مرادى أن أتخذ بيتًا فى المكان الفلانى فيرسل معه الملك طائفة من السمك يسمون بالنقارين ويجعل أجرهم شيئًا معلومًا من السمك ، ولهم مناقير تفتت الحجر الجلمود ، فيأتون إلى الجبل الذى أراده صاحب البيت وينقرون فى البيت وصاحب البيت يصطاد لهم السمك حتى تتم المغارة ، فيذهبون وصاحب البيت يسكنه .

ثم يقع منظر عائلى طريف إذ تدخل ابنة عبد الله البحرى وبعدها زوجته ، ولكل منهما وجه مدور مثل القمر وشعر طويل وردف ثقيل وطرف كحيل وخصر نحيل ، لكنها عريانة ولها ذنب . ودخل مع الزوجة ولدان ، كل واحد فى يده فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان فى الخيارة . فلما رأوا عبد الله البرى ذهلوا وقالوا « أى شىء هذا الأزعر ؟ » . وتقدم الولدان

وأختها وأمهم وصاروا ينظرون إلى عبد الله البرى ويقولون : « أى والله أزعر ، ويضحكون عليه ، حتى احتج عبد الله البرى على عبد الله البحرى قائلاً : هل أنت جئت بى لتجعلنى سخرية الأولاد وزوجتك .

وبينما هم فى طريق العودة رأى عبد الله البرى غناءً وفرحًا وسماطًا من السمك والناس يأكلون ويغنون ، فلما استفسر منه عما إذا كان هذا عرسًا أجابه عبد الله البحرى : بل عندهم ميت ، وهم فرحون لأن الله استرد أمانته . ولما علم أن أولاد البر يحزنون على الميت والنساء يلطمن وجوههن استرد أمانته التى كان قد أعطاها لرفيقه وأعلن أنه قطع صحبته ولن يراه بعد اليوم قائلاً : إذا كان لا يهون عليكم أن الله يأخذ أمانته بل تبكون عليها ، فكيف أعطيك أمانة النبى ﷺ ؟

وهكذا نجد فى هذه القصة عملاً فنيًا متكاملاً عظّم فيه القاص من مكانة الإنسان بالنسبة لبقية المخلوقات ، لكنه فى الوقت نفسه أعطاه درسًا فى الإيمان وقبول مشيئة الله ، بعد أن استفاد من المعلومات العلمية والقصص الدينى فى عصره . إنها قصة بحرية كاملة لأن كاتبها نجح فى الإيحاء بالوسط البحرى . فالبحر هو العنصر الغلاّب فى القصة من أوّل لحظة (انظر . د . حسين فوزى ، حديث السندباد القديم ، ومطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ٢٣٥ – ٢٥٥) .

ونحن لا نَصِفُ قصة عبد الله البرى وعبد الله البحرى بأنها قصة من قصص الخيال العلمى إنما نَصِفُها بأنها قصة من قصص الفانتازيا . والفانتازيا وإن بدت فى عصرها أنها لا تأبه بحواجز الزمان أو المكان أو ما بين الحياة والموت ، فإنها فى الواقع ليست إلاّ الابن الشرعى لما عُرف بقصص الخيال العلمى فيما بعد . كل الفرق بينهما أن الإنسان فى القصة الفانتازية يحلم بالتغلب على ما يجده من صعاب وعوائق دون أن يبذل جهدًا من أجل تحقيق هذا الحلم عمليًا ، أما فى روائع الخيال العلمى فإن الكاتب يحاول أن يقدم مشروع اختراع علمى يمكن أن يهتدى به العلماء أنفسهم ليحققوه بعد إدخال بعض التعديلات فى ضوء التجربة العملية . وهكذا فإن بساط الريح فى القصة الفانتازية ، يتحول إلى طائرات ومناطيد فى قصص الخيال العلمى عند كل من جول فيرن و هـ . ج . ويلز .

وهكذا فإن نهاد شريف عندما يقدم لنا روايته « سكان العالم الثانى » ، إنما كان يرجع بنا إلى تراثنا القصصى الذى تخيل قاصنا الشعبى وجود آدميين يسكنون قاع البحر ، ولكن الجديد

فى تخيله أنه لم يكن مجرد حلم فانتازى بل حلمًا يقوم على دراسات وتجارب علمية سابقة . وهذا هو الفرق بين روايته وقصة عبد الله البرى وعبد الله البحرى .

ولنهاد شريف قصة قصيرة سبق أن نشرها فى مجموعته القصصية بل عنوانًا للمجموعة هى قصة « رقم ٤ يأمركم » أعتبرها القصة التمهيدية لروايتنا « سكان العالم الثانى » شكلاً ومضمونًا .

تبدأ القصة باستعراض أماكن مختلفة من الكرة الأرضية فى لحظة زمنية واحدة (مع اختلاف التوقيت المحلى) وقد كانت تلك اللحظة فى اليوم العاشر من أكتوبر ١٩٩٠ حين صدر إنذار إلى مخلوقات الأرض يهيب بحكوماتها المبادرة إلى فك وإبطال جميع المخزون لدى كل دولة من قنابل ذرية وإتلاف كل ما له صلة بتصنيع هذه الأسلحة الفتّاكة أو إنتاجها ، وذلك خلال أسبوعين بالحساب الأرضى . وأن أهل الأرض يجب أن يتعظوا مما وقع للكوكب رقم ٥ حيث وقعت بين سكانه حرب ذرية فكانت النتيجة تفتته إلى ٥٥ ألف كويكب . ولكن ردّ الفعل عند أهل الأرض كان تبادلاً للاتهامات بين المعسكرين الشرقى والغربى بأن كلاً منهما يحاول أن يخدع الآخر فيُصدر مثل هذا الإنذار ليدمر الطرف الآخر أسلحته ، بينما تحركت القاهرة لتوقظ أعضاء المعسكر الحيادى الذين قاموا بجهود مضنية لتقريب وجهات النظر ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . ثم صدر بيان ثان يوضح فيه أصحابه أنهم يعيشون فى الكوكب رقم ٤ (وهو كوكب المريخ طبقًا لترتيبه فى مجموعة الكواكب الشمسية) وأنهم يعيشون فى مدن ضخمة تمتد عبر طوابق متعددة متتالية وأنفاق طويلة متشابكة شُيِّدت جميعها على عمق يصل إلى تسعة كيلومترات تحت ثرى كوكبهم ، وقد دفعهم إلى ذلك عدة أسباب أولها ما يتميز به سطح كوكبهم من برودة شديدة وثانيا كارثة انفجار الكوكب رقم ٥ وتفتته ، الأمر الذى عرضهم – بحكم الجوار – لتساقط الآلاف من قذائف الكويكبات والشهب والأحجار تدك مدنهم وقراهم القديمة وتمحوها من الوجود تاركة مكانها فجوات مخروطية كبيرة الاتساع هى ما تصوره راصدو الأرض – بعد انقضاء آلاف السنين على حدوثها – بأنها فوهات بركانية عجيبة . وتلك المدن المُقامة تحت الثرى تفوق مدن الكوكب الأرضى ، فقد زودت بكافة ما تحتاجه من أحدث وسائل التكييف والتدفئة ، وبقنوات المياه النقية والإنارة الفوسفورية الذاتية وبموجات الأشعة البنفسجية تعويضًا لفقدهم ضوء الشمس ، كما أقاموا

مدنًا حيوانية تشبه المراعى ، كما يربون أسماكًا فى بحيرات جوفية . أما الطيور فقد مضى زمان على انقراض كل ماكان يحلق منها فى الجو المريخى .

ومع كل هذا لم تصغ دول العالم الكبرى لهذا الإنذار الثانى ، فماكان من المخلوقات المريخية إلاّ أن نفذته فى الموعد المحدد ، فاختفى مخزون القنابل النووية وأسرار تحطيم الذرة وتلاشت المعدات والآلات المتحركة بالطاقة الذرية .

ونحن نعتبر هذه القصة القصيرة هى التخطيط التمهيدى لروايتنا « سكان العالم الثانى » ، ولعل الفكرة المشابهة التى تقوم عليها كل من القصة والرواية – بل وبعض التفاصيل – من الأفكار التى تلح على نهاد شريف ، فتظل بالرغم منه فى أكثر من عمل أدبى وأكثر من شكل أدبى .

فالرواية تبدأ – مثلما تبدأ قصتنا القصيرة – باستعراض عدد من الأماكن المختلفة على سطح الكرة الأرضية يتلقى شاغلوها رسالة واحدة : إنه فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا ، وبالتوقيت المحلى لجرينتش من يوم ٣١/ ٥/ ١٩٩٩ (أى قرب نهاية القرن أيضًا) سوف تُنسف أكبر منطقة بحرية لكل أسطول من أساطيل الدول الثلاث الكبرى (أمريكا وروسيا والصين) . وقد كان رد الفعل لذلك نفس رد الفعل فى القصة القصيرة : اتهامات من جانب كل دولة بأن دولة أخرى تحاول أن ترهبها . ولكن حدث فى الموعد المحدد أن نفذ المهددون وعيدهم بتسليط حرارة مفاجئة مريعة على المولد الذرى لأكبر وأهم قطع أسطول كل دولة من دول العالم الثلاث الكبرى . وأعلن صحفى فرنسى أن مرسلى الإنذار لابدّ وأن يكونوا من كوكب المريخ ، وسكانه هم الذين يرقبون أهل الأرض ويوجهون أسلحتهم التى لا قبل لإنسان أرضى بها ، ولكن علماء الفلك أثبتوا أن المريخ – على عكس ما جاء فى القصة القصيرة – خلو من أى أثر للحياة .

وبينما كان سكان الكرة الأرضية فى حيرة مما حدث ، إذا ببرقية جديدة مجهولة المصدر تعلن أن مرسليها قرروا السماح باستقبال ممثلين عن دول الحياد الثلاث (مصر – كما فى القصة القصيرة – والهند ويوغوسلافيا) ليذهبوا على المقر السرى لهم ويروا كل شىء بوضوح ثم يعودوا فيقدموا للمنطقة الدولية تقريرًا بكل مشاهداتهم وانطباعاتهم وآرائهم ، وتترك حرية اختيار الممثلين الثلاثة لحكوماتهم القائمة . وهكذا وقع الاختيار على المندوبين الثلاثة ليقوموا برحلتهم فى مدينة القاع – قاع البحر – وذلك بعد أن حملتهم إلى هناك غواصة ذاتية الحركة :

وقد حال شكل القصة القصيرة « رقم ٤ يأمركم » عن القيام برحلة مماثلة فى باطن المريخ وإن كانت مخلوقاتها قد أعطتنا فكرة عن مدنهم فيه .

وليس هنا مجال تتبع الرحلة الشائقة التى قام بها مندوبونا لتفقّد مدينة القاع ، إنما يكفى التنويه بتيقظ نهاد شريف للرد على كل سؤال قد يدور فى ذهن القارئ – وهو ما أغفله مثلاً القاص الشعبى فى قصة « عبد الله البرى وعبد الله البحرى » ، مثال ذلك تساؤل القارئ عن كيفية حماية دهان الدندان للجهاز التنفسى لعبد الله البرى وهو تحت الماء ، فقد كان دخول الماء رئتيه واختناقه هو ما يخشاه ، هذا سؤال لا جواب عليه فى القصة الشعبية ولسنا ننتظر منها إجابة لأن من طبيعتها ألاّ تجيب على كثير من تساؤلات القارئ ، وفى مقابل ذلك نستطيع أن نستشهد بتساؤل مماثل فى روايتنا « سكان العالم الثانى » ، فلماذا لم تستطع أجهزة الكشف الرادارى اكتشاف الغواصة التى أقلتهم ، والجواب هو اكتشاف واستخدام ما يسمى بالجدار الموجى ويتم بتوليد نوع من الإشعاع عالى التردد ينطلق من دوائر متتالية من منطقة البث الذى تقوم به أجهزة الكترونية تستخدم فكرة إشعاع الليزر مع بعض التحويرات الجوهرية ، وحين تتكون دائرة الجدار الموجى يستحيل على أجهزة التجسس أن تخترقها بموجاتها .

وعلى مائدة الطعام نجد الغذاء يكاد يكون بحريًّا خالصًا – ولكنه ليس فى بساطة القصة الشعبية مجرد سمك طرى يقرش فيه الصغار كما يقرشون الخيار – بل إن التعقيد الحضارى قد جعل منه أشكالاً وألوانًا : قطع كاملة من سمك الدينيس المحمّر عليها صلصة سميكة ، وشرائح من ثعبان العشب المدخن ، وسلطة جنبرى ، ونسائل مقطّعة رفيعًا من الحبار وخيار البحر المخلل ، بينما تتوسط المائدة – وحولها هذه الأصناف – سمكة وقار ضخمة لا يقل وزنها عن وزن خروف صغير ، حُشيت بنوع لاسع من زهر الأعشاب البحرية كروى الشكل . ولا شك أن هذا الإسراف فى الطعام مقصود به استعراض أنواع المأكولات البحرية .

أما منْ هم سكان القاع ، فهم مجموعة من العلماء الشبان من مختلف التخصصات والجنسيات ممن يعانون المرارة والأسى لعجزهم عن تحقيق مُثُلهم العليا . لذلك فهم يرفضون الأوضاع السائدة على كوكب الأرض بعد أن وعوا اتساع الهوة المخيفة التى يسعى الجنس البشرى إلى التردى طواعية – وبحمق بالغ – فى أعماقها . من أجل ذلك تفاهموا وقرروا أن يفعلوا الشىء الذى تأخر فعله منذ قرن أو يزيد ، ألا وهو اتخاذ خطوة إيجابية تمنع وقوع الكارثة ، مستخدمين فى سبيل تحقيق هدفهم شتى الوسائل بما فيها اللجوء إلى العنف . أما فى

حالة الفشل – بالرغم مما اتخذوه من حيطة فسيعجّلون بتفجير كوكب الأرض ما دامت هى النهاية الحتمية المرتقبة لمصيره المحزن ، وهو تفكير يائس لم يفكر فيه أهل المريخ فى قصتنا القصيرة ربما لإحساسهم بتفوق لا يحس به هؤلاء العلماء .

وواضح أنها القضية نفسها التى من أجلها أرسل سكان الكوكب رقم ٤ إنذارهم إلى أهل الأرض ، تلك القضية الخطيرة الحيوية التى يتحمّس لها نهاد شريف كل التحمس وتلح عليه فى أكثر من قصة له . وها هو ذا كبير حكماء مدينة القاع يسترسل قائلاً : هل سمع أحدكم أن حيوانا اعتدى على حيوان آخر دون حاجة لدفاع أو طعام . الإنسان وحده دون حيوانات الأرض يفعل هذا الشىء البغيض .

ثم نسمع الخلفية الفكرية نفسها تتردد فى «رقم ٤ يأمركم» . لقد قفز الإنسان ملايين القفزات التقدمية بيديه وقدميه ، لكن عقله وأفكاره ما تزال غير ناضجة . إنه متقدم ماديًّا ، لكنه شديد التخلف روحيًّا .

وبالرغم من الحل اليائس الذى فكرت فيه مجموعة العلماء فى حالة فشلهم فإننا نستمع إلى الحكيم الثالث يهمس قائلاً : نحن فى مسيس الحاجة إلى المزيد من قوى الروح ، تستمد من نور الإله الأعظم الخالد المهيمن على الكون بأسره ، لتضبط قوانا المادية ، وتحدّ من شهواتنا وشرورنا . وهذه الروح المؤمنة صاحبت كثيرًا من شخصيات نهاد شريف فى روايته الأولى « قاهر الزمن » .

لهذا كان عقد « المؤتمر الدولى للعلم فى خدمة الإنسان » عام ١٩٧٩ حيث بحث المجتمعون مصير الإنسان فى ظل تلوث البيئة والتسابق نحو التسلح والحروب المحدودة وضغوط ازدياد السكان وقلة الموارد ، وفى النهاية كان السؤال الأكثر إلحاحًا على ألسنة العلماء الشبان : لماذا جيلنا بالذات ، لماذا كُتب عليه أن يطول أساه ، أن يعرف الحساسية والتوتر والقلق النفسى والأرق وضعف المناعة الجسدية وآلية الحياة والتفكك الأسرى وانفصال الإنسان عن تراثه وجنون الضوضاء . . إلخ .

من هنا كان قرار العلماء الشبان الأوّل ، البحث عن مكان سوى يختبئون فيه لمدة من الزمن بغرض العمل جديًّا بكافة الطاقات المتاحة من أجل خدمة الجنس البشرى وإسعاده . وعندما لجأوا إلى قاع البحر اكتشفوا أن المحيطات مستودع لا ينضب لأنه يحتوى على كل معادن الكرة الأرضية .

ثم يطلعنا نهاد شريف على مدينته الفاضلة : الجهاز السياسى لمدينة القاع يتكون من ثلاثة مجالات حاكمة هى من القمة مجلس الحكماء ويتكون من أربعة أفراد يتم اختيارهم بالانتخاب ، ليحكموا أربع سنوات ، يتولى أحدهم رياسة المجلس فى كل سنة منها ، وصوته يكون بصوتين عند الاقتراع . ثم يليه المجلس الاستشارى وعدد أعضائه ثلاثون يتم اختيارهم بالانتخاب . ثم عند القاعدة اللجان التنفيذية وتضم بقية أفراد الجماعة وينبثق منها اللجان الفنية والاجتماعية ، وأهم هذه اللجان وأكثرها فاعلية لجنة التربية وشغل أوقات الفراغ ، ولا تفرقة فى مدينة القاع فى الدين أو اللون أو الجنس والقوانين المطبقة مأخوذة عن مصدرين : القانون الفرنسى وأحكام شريعة الدين الإسلامى .

وإذا كان هؤلاء القوم قد عمّروا العالم الثانى – عالم المحيطات والبحار – فلا مفر إن عاجلاً أو آجلاً أن يعمّر غيرهم العالم الثالث – عالم الطبقات العليا – وقد اجتاحت مخيلة الراوى ، – وهو السيد شادى بديوى حسن الصادق مندوب مصر إلى مدينة القاع – رؤى مبهمة شاهد خلالها مجالات الأرض الثلاثة المفتوحة وقد غمرتها نماذج متباينة من البشر ، وقد شابت قامات الناس بعض المتغيرات العضوية باختلاف كل مجال عن الآخر . فتحت البحر نبتت لهم زعانف بدل الأطراف (مثلما نبتت لأهل عبد الله البحرى ذيول فى قصة ألف ليلة وليلة) ، وفى الأجواء العليا ظهرت لهم أجنحة .

وعندما أثبت الكشف الطبى على السيد راجى مندوب الهند وجود أربع حصوات من ملح الأوكسيلات يشغل أكثر من نصف كليته اليمنى (وموضوع الكلى يلح أيضًا على نهاد شريف فى أكثر من قصة من القصص القصيرة مثل قصة الماسات الزيتونية) . وحجز فى المستشفى لإخراج الحصوات ، استطاع المندوبان الآخران المصرى واليوغوسلافى أن يستعرضا إنجازات مدينة القاع فى مجال الطب طيلة عشرين عامًا . كما تفقدا أقسام مدينة القاع حيث شاهدا تصميمات وتركيبات دور المدينة وطرق مواصلاتها ومساراتها المتشابكة وزراعاتها ومحتويات حظائرها . وعرفا أن علماء مدينة القاع يحتطون لأنفسهم شعارًا فحواه « التصغير والتركيز والفعالية سمة المستقبل » .

وفى اليوم التالى قاما برحلة فى إحدى الغابات القاعية ، وهى غابة طحالب عملاقية حيث قاما مع مرافقتيهما بصيد سمك مفترس ثم شيّه داخل فرن حرارى أقيم فى تجويف فى جدران أحد الكهوف المضاءة صناعيًا وله باب أُعِد لمعادلة ضغط الهواء ، فقد كانت فى نهايته فتحة علوية

تمتد غائرة فى قلب الصخر حتى تنفذ إلى سطح جبل الجزيرة التى تعلوهم ، يتسرب منها الهواء إلى الكهف . وهنا يكتشف بطلنا الدكتور شادى – ورفيقته القاعية تطارحه الغرام – ذلك الإحساس المبهم الدفين الذى يسرى فى أغوار كل إنسان : الإحساس بالرغبة فى اختفاء الجدران ... بالانفتاح والانطلاق على سطح كرة أرضنا دون عائق تحت أنس النجوم ودفء الشمس وخلال هبات الريح الآتى عبر أنهار وجبال وصحراوات تمتد إلى أنحاء قصية .

وكما سبق أن شاهد سلفه عبد الله البرى الدندان وعرف أنه مصدر الدهان الأصفر الزكى الرائحة الذى يدهن به جسمه ليحميه من مخاطر المياه ، كذلك شاهد خلفه السيد شادى حوت العنبر ، ولكنهم الآن يربونه ضمن قطيع فقد استأنسوه ، ثم يحقنونه بمادة مذيبة للأشياء الصلبة ببطنه والمعروفة بمادة العنبر ، كما يسحبون بمحقن آخر الزيت السائل .

وفى اليوم التالى أصاب الأرق السيد شادى ، فكانت فرصة يتفقد فيها مكتبة حجرته . فاكتشف طريقةً مستحدثةً للاطلاع والقراءة . وفى الصباح جلس مع زعماء مدينة القاع للإفطار . وكان موضوع الحديث : أيكون البحر بالنسبة للبشر مصدر خير عميم أم شر مستطير؟ وكان الجواب أن سكنى قاع البحر قد يكون حلاً لمشكلة التكاثف السكانى . وفى أثناء الحديث جاء من يخبرهم بنزول الحصوات من كلية راجى قبل موعدها بيومين .

وفى يوم آخر قام شادى ورفيقته ماهيتاب (وقد عرف اسمها عندما نمت العلاقة العاطفية بينهما بل عرف قصة حياتها وكانت من قبل مجرد رقم بالنسبة له) قاما بزيارة مبنى حضانة أطفال قاع البحر . وتربية الأطفال فى هذه الحضانة تذكّرنا بتنشئة الأطفال فى رواية « عالم شجاع جديد » – أو « العالم الطريف » كما تُرجمت إلى العربية – لألدوس هكسلى . فالأساس التربوى فى هذه الحضانة يدور حول أقلمة النشء وتثبيت واقع الحياة الجديدة فى أعماق وجدانهم بأحدث الطرق العلمية .

وأثناء تلك الزيارة وقع زلزال هزّ مدينة القاع ونشأت عنه أضرار بسيطة لأنهم يحسبون حسابها ، لكن نشأت عنه أيضًا ظهور جزيرة صغيرة ، وبمساعدة الحمالة النفاثة أمكن القيام برحلة لرؤية الجزيرة الجديدة (والحمالة النفاثة جهاز نفث مستقل يثبت على ظهر الفرد ليحمله ويطير به على ارتفاعات قد يصل أقصاها إلى مائتى متر ، يستخدم فى تخطى البرك والأنهار ، ودراسة المواقع الصعبة والتنقل لمسافات قريبة ...) . وبينما كان شادى يحلّق فى اتجاه الجزيرة الوليدة كان ذهنه يحلّق فى حلمه بمستقبل إنسانى متفائل : إن إنسان المستقبل سوف يتمتع

بنعمة النعم . سوف يقوده عقله إلى التحرر الكامل من مقومات الجاذبية ... من اختلافات ضغوط الهواء الجوى وتكاثفات الإشعاعات الفتاكة ، واحتمالات نقص الغذاء .. سوف يَنْفُذُ طليقًا عبر جميع مجالات كوكب الأرض .. على ثراه .. تحت مياهه .. فوق أجوائه .. سمائه .. وأيضًا إلى خارجه بعيدًا عن أجوائه وسمائه .

وفى اليوم العشرين ، آخر يوم من أيام الرحلة إلى مدينة القاع ، جلس علماؤنا الثلاثة مع كبير حكام المدينة . ويبدو تعصب نهاد شريف لوطنه مصر وحبه له ، حين يجعل أبطاله يجلسون أسفل لافتة فرعونية كُتب عليها بحروف لاتينية إشادة بدور مصر الريادى فى الحضارة . وفى هذا الاجتماع الأخير أعلن كبير حكماء المدينة رسالته التى حملها المندوبون الثلاثة ليبلغوها إلى إخوانهم سكان القشرة الأرضية : أن يوقفوا إفناء بعضهم بعضًا ويتفرغوا لكلّ ما يجابههم من مشاكل مصيرية .

وإذا كنا قد تلقينا الجزء الأكبر من قصتنا على هيئة مذكرات يدونها شادى يصف فيها رحلته إلى مدينة القاع كعضو فى وفد ثلاثى من دول الحياد أرسلوا بناء على دعوة من حكماء المدينة ، فإن الجزء الأخير من روايتنا جاء على هيئة رسائل متبادلة بين شادى – الذى عاد إلى سطح الأرض بعد رحلته المثيرة – ومرافقته هيتاب أثناء تلك الرحلة ، وقد ربط الغرام بينهما ، وذلك عن طريق رسول من مدينة القاع كان يتردّد على القاهرة من وقت لآخر .. ونحن نلاحظ أن قالب المذكرات والرسائل ليس غريبًا عن أدب نهاد شريف ، بل ويكاد أن يكون القالب المفضل لديه سواء فى روايته الأولى « قاهر الزمن » أو فى كثير من قصصه القصيرة .

ولقد قامت لجنة دولية عليا بفض المظروف الذى حمله مندوبونا الثلاثة . وقامت بنشر فحواه عشية نفس اليوم فى صحافة العالم وإذاعاته . وقد نصّت مطالب مدينة القاع على عقد معاهدة سلام عالمية تلتزم بها كافة دول الأرض مع فرض عقوبات رادعة على من يخترقها ، كما تنص المعاهدة على إتلاف المخزون من قنابل الدمار والاقتصار على استخدام الذرة فى المجالات السلمية فقط . وفى النهاية فرضت المعاهدة استخدام عقار الحب على النطاق العالمى إجباريا ، بحيث يتناول جرعاته الأطفال منذ عامهم الأوّل . – ولعل تربيتهم تربيةً واحدة لخلق ميول متقاربة ، أقرب إلى التحقيق العلمى من هذا العقار الذى ما يزال أقرب إلى أن يكون حلا فانتازيًا ، على نحو مافعل يوسف السباعى فى روايته أرض النفاق – كما تنص المعاهدة على

السماح لعلماء مدينة القاع بنقل بعض مظاهر حضارتهم القاعية – على دفعات – إلى منطقة غرب أستراليا ، والهدف من ذلك تحويل هذه المنطقة الصحراوية إلى نموذج واقعى لإنجازات الجماعة المخلصة للإنسان .

لقد أعلنت الدول الدائمة الخمس فى مجلس الأمن رفضها البات لمطالب جماعة العلماء ، فكان الردّ على ذلك الرفض هو إنذار بتوجيه إحدى القنابل المدارية الأمريكية التى تلف السماء – بعد السيطرة عليها بوسيلة خفية – بحيث تصيب وادى الموت ، وهو منطقة بقلب صحراء جافى الأمريكية الواقعة فى شبه جزيرة كاليفورنيا ، فتمحوه خلال ٢٤ ساعة من ذلك الإنذار . فأهل القاع ليس لديهم أسلحة تدميرية ، ولكنهم يردّون الأسلحة التدميرية إلى صدور من أنتجوها . وعندما تم تنفيذ هذا الإنذار ، عاد مجلس الأمن إلى الاجتماع ووافق على طلبات الجماعة كلها .

وتتتابع الرسائل بين الطرفين ، فيتحدث شادى فى رسائله عما أحرزته مصر من تقدم خلال الحقبة الأخيرة من القرن العشرين ، وهى رسائل إن دلّت على حب أبطال نهاد شريف المصريين لوطنهم مصر – وهى ظاهرة متكررة سواء فى روايته « قاهر الزمن » أو فى بعض قصصه القصيرة إلاّ أنها تعتبر زوائد على البناء الفنى للرواية . فضلاً عما تتّسم به من أسلوب تقريرى وصفى ، حتى إن كاتبها يشعر بذلك فيسأل حبيبته ماهيتاب : هل أطْلتُ عليك فى هذا الجزء من رسالتى؟ معنى هذا أن حذفها لا يخل بل على العكس من ذلك فإن من شأنه أن يزيد الرواية تركيزًا ، فهذه الرسائل تشدنا إلى حلم آخر هو الحلم بمصر المتقدمة العلمية وتشتت انتباهنا تمامًا عن الحلم الآخر الذى تدور حوله الرواية وهو الحلم بغزو الإنسان لقاع البحر غزوًا علميًا من ناحية ، ومحاولة وقف تيار التسلح الذى يهدد البشرية بالفناء من ناحية أخرى .

وإذا كان سكان المريخ فى القصة القصيرة « رقم ٤ يأمركم » قد استطاعوا أن يحققوا هدفهم فمحوا المخزون من أسلحة الدمار ووسائل إنتاجها على الكرة الأرضية ، فإن سكان المدينة القاعية قد وقعوا ضحية غدر لقوى الشر نفذته نفاثات مجهولة الهوية على مكان تجمّع سكّان مدينة القاع المنقولين إلى صحراء أستراليا وعلى غواصاتهم التى كانت تنقل آخر أفواجهم ، فلم ينج منهم إلاّ ستة أشخاص من بينهم ماهيتاب وكبير الحكماء وأربعة آخرون كانوا على ظهر جزء من غواصة – والغواصة مصممة بحيث تنفصل إلى ثلاث قطع فى حالة

الخطر كلٌّ منها يستطيع التحرك بمفرده – وقد كان هذا الجزء من الغواصة هو الوحيد الذى نجا بركابه من الكارثة عائدًا بهم إلى مدينة القاع . وهكذا فلئن كان سكان مدينة القاع قد غُلبوا على أمرهم هذه المرة ، إلاّ أنه لم يُقْض عليهم ولا على مدينتهم نهائيًّا ، ولهذا فإن شادى يكتب إلى ماهيتاب قائلاً : بدقة جديدة منكم أو بوقدة تشتعل فى صدوركم حتمًا ستندلع الثورة على الأوضاع غير الطبيعية السائدة . . . فوقدة الأمل لن تخمد إطلاقًا فى صدور الناس ما بقى سرّ مدينة القاع مغلقًا مجهولاً .

ولا شك أن هذه النهاية أكثر تفاؤلاً من النهاية العاصفة لقلعة النائمين التى أنشأها الدكتور حليم صبرون فى رواية « قاهر الزمن » حيث أدّى عراك الدكتور مع مساعده إلى نسف القلعة وانهيار الجبل فوقها مما قضى على جهوده وما وصل إليه من اكتشاف علمى .

معنى هذا أن نهاد شريف وإن تخلى عن تشاؤمه الذى عبّر عنه فى نهاية روايته الأولى « قاهر الزمن » ، فإنه أيضًا لم يندفع إلى تفاؤله المطلق الذى عبّر عنه فى نهاية قصته « رقم ٤ يأمركم » . إنه هنا أكثر واقعيةً ، فقد عبَّرت نهاية « سكان العالم الثانى » عن تفاؤله المشوب بالحذر ، أو بمعنى أصح عن تشاؤمه المشوب ببصيص من أمل .